مع الطبيعة

بقلم الدكتور فؤاد صروف . بيروت ، ١٩٦٢

هذا الكتاب ، كما ورد في تعريف المؤلف ، «سوانح فكر جمعتها على موائد الطبيعة ، ومعان من حياتها وحياتي ، استمدتها فعشت في نعماها مرتين ، ثم دونتها وضممتها بين دفتي كتاب » . وفي الكتاب فصول متنوعة جمعت في بابين : الباب الاول « فتات من موائدها » والباب الثاني « امراء في مجالسها » . ويعتبر الباب الاول تمهيداً لأدب الطبيعة واخلاق الطبيعة ، تنطوي تحته الخصائص الفكرية والخلقية التي ينبغي للطبيعة ان تتصف بها .

لذلك بدأ المؤلف بالتربية والكارثة ، ثم اي الرجال المثقف ، ثم عرض لامثلة من مشاكل المواطنة الصالحة . فمن معاني الطبيعة عند المؤلف ان تؤمن بأن طلب المعرفة جهاد ليس له حد يقف عنده ، وان المعرفة التي يتلقاها الطالب خليقة ان ينسى دقائق بعضها وتفاصيلها ، ولكن العقل المشوق الى الحقيقة المدرب على البحث المحكم الحر هو الزاد الفكري الابقى . وهو في هذه النقطة يعالج داء انتشار الثقافة التي ليس لها شخصية ولا جذور قائمة بنفسها . والثقافة ما دامت مستعارة لا خير فيها ، لان غاية المعرفة الصحيحة ان تبدع العقل المدرب التواق الى الانطلاق نحو الحقيقة . ومن هنا بتنا نحس بجدب العقول عندنا ، لان هذه العقول جاهدت في جمع المعرفة ولم تجاهد في ان تجمع خصائص توليد المعرفة وتوسيعها .

والمؤلف حريص على ان تندمج المعاني الفكرية والقيم الخلقية والاجتماعية ، لان هذا الاندماج شرط اساسي لادراك الحكمة وبناء المدينة الفاضلة . ويرى المؤلف ان هذا الاندماج بات ضرورة ملحة في هذا العصر الذي سخر فيه العلم هذه الطبيعة العصية للانسان . فالمشكلة لم تعد مشكلة عجز العقل حيال الطبيعة ، والانتفاع بها ، بعد ان تفوقت قدرة العقل على قدرة الطبيعة ؛ ولكن المشكلة هي كيف ننتفع بالقدرة لتحقيق العدالة والحرية والخير والرخاء في الجماعة . اي انها مشكلة خلقية اجتماعية .

وفي الحق ان ما يعانيه العالم اليوم من اشد الازمات انما ينبع من صميم هذه المشكلة . ولو ان الناس ارادوا لبعضهم من هذه العدالة والحرية والخير ما يريدون لانفسهم لخف الشيء الكثير من حدة هذه الازمات ، وكما قال المؤلف « ان مشكلة العالم ليست بمشكلة معرفة ، بل مشكلة قيمة المعرفة من الناحية الخلقية » . ولذلك كان على القدرة التي فتقها العلم واطلقها ان تضبطها الفضيلة ، حتى تجدي جدواها الخيرة . والمؤلف حريص على ان يستعيد الفكر العربي دوره في الطليعة ، وقد كان له هذا الدور في السابق . وهو يعتقد بأن كل حضارة ترضى بالانعزال تكتب على نفسها الركود والزوال ، وكل حضارة اصيلة لا تحيا الا اذا كانت تأخذ وتعطي ، وبغير التلاقح الفكري على المدى الطويل تصاب الحضارة بالعقم . ومن اولى من هذا العصر بهذا التلاقح الفكري بعد ما صغرت الارض واتسعت

قدرة الانسان على موارد الطاقة وعبثت يده بأسرار الطبيعة ؟ وبعدما اصبح العالم كله مترابطا ترابطا وثيقا بين اجزائه ؟ وبعدما رنت العيون كلها في كل مكان الى حياة افضل ؟

والطريق الى حل هذه المشكلة ، مشكلة التفاوت بين عقل الانسان وروح الشر فيه ، هو التربية التي تصدف عن عرض المعرفة ، وتصون الحرية وتعززها ، ولكنها تقرنها وتدمجها في شعور التبعة حتى يستوي ميزان الحكمة .

هذا الشعور بالتبعة ، سواء التبعة الانسانية او التبعة الاجتماعية او التبعة الخلقية ، هو السبيل الى انقاذ مآثر الانسانية وقيمها الباقية على الدهر ، دون ان يفسد منها التقدم العلمي اي شيء ، ودون ان تغرينا الحرية بتهديم كل شيء . ولهذا الغرض تجد في العصر الحديث نزعة قوية بين اهل التربية والفكر الى ضرورة الجمع بين القيم الخالدة المستمدة من تراث الآداب الانسانية ومن طبيعة الاسلوب العلمي نفسه من ناحية ، وفائدة التخصص في علم او فن او صناعة من ناحية اخرى ، حتى يصير المرء انسانا في قرارة نفسه توازن سليم بين القدرة والقيمة ، بين الحرية والتبعة ، فيكون ذلك دربه الى الثقافة الاصيلة والحكمة فالى المواطنة الصالحة. وكأني بالمؤلف ، بعد ان تبنى هذه الفكرة ، يدعو الى ما يسميه « بالتوازن الحكيم » ، وهو ان يكون رجل المستقبل — في حالة تخصصه — ملماً بالاشياء الاخرى ، لان المعارف الانسانية مترابطة وبعضها لا يغني عن بعض ، فالاديب لاغنى له عن بعض النظريات العلمية لاغناء ادبه ، والعالم لا مفر له من تذوق الادب والفن ، حتى يسمو بروحه ويصقل عقله .

والباب الثاني من الكتاب هو « آراء في مجالسها » و « حلة المشاعل » ، وينطوي تحت هذا الباب اسماء شعراء وادباء من ابناء الكلمة ، واسماء رجال ادوا رسالتهم في المجتمع ، فهم اذاً نماذج عند المؤلف من رجال الطليعة ، وبينها من لا يصله بالطليعة شيء ، الا ان يكون له اثر من تعلم او صداقة او اعجاب في نفس المؤلف . ومن وراء هذه النماذج شخصيات اقوى منها اثراً لم يعرض لها ، كالريحاني وجبران والشميل الذي كان معلم العقل ورسول حرية الفكر غير منازع في جيله وعصره ، وغير هؤلاء ممن كانت مشاعلهم انور ، وادبهم الى الادب الطليعي اقرب .

من هؤلاء الذين الم بهم المؤلف الاخطل الصغير واليـاس فرحات وشبلي الملاط كشعراء ، والرافعي والمنذر كأدباء ، وحسن كامل الصباح ويعقوب صروف كعلماء ، وغيرهم . على ان هذه الدراسات القصيرة لا يمكننا ان نضعها في الجو الدراسي المتكامل لان المؤلف لم يتوخ منها ذلك ، وانما هي ادنى الى ان تكون انفعالات وذكريات شخصية سجلها المؤلف بروح المنصف لها المعجب بها .

ففي بحثه عن الشاعر الهندي طاغور يعطيك خصائص الروح الهندية بلمحات . ومن ذلك مايقوله طاغور : « يقول الغربيون اننا متصوفون ، وعلى ثغورهم بسمة ازدراء ، على ان اغنية من اغانينا القومية التي ينشدها الفلاح في حقله والصياد في قاربه تحدد غاية هذه الفلسفة الصوفية . انهم ينشدون . ماذا جنيت حتى حكم علي بأن اسكن في سجن من الحقائق ؟ » انهم يريدون ان يتحرروا من هذه الحقائق غير الثابتة ليصلوا الى الحق الازلي . وفي اعتقاد طاغور « ان الثقافة الاصيلة لا تعرف حدوداً من البلدان والاجناس ، فهي تطوق الارض كالغلاف الجوي الذي يحيط بها » .

وفي فصله عن الشاعر الياس فرحات يعجبني من المؤلف ربطه بين الهام العالم الباحث والهام الشاعر الخيالي . وهذا الربط هو نتيجة ايمان الشاعر بوحدة المدارك الانسانية ، « فاللحظة التي تستوي فيها للباحث لمحة من حقيقة ، كاللحظة التي ينزاح فيها للشاعر لثام عن جمال او خير او قوة او حق او

فهم ، هي لحظة النشوة العليا » .

وفي هـــذا الفصل يحدد رسالة الشاعر بقوله : « وان الشاعر كائنـــا عصره ما كان ليس لزاما عليه ان يستقصي ويفصل ويحلل ويوطىء ويستنتج ، بل هو قادر ، اذا كان شاعراً اصيلا بطبيعة فطرته ، ان يستوعب ويتمثل في قرارته ، وان يلمـــح في الصور المتراكضة المعاني الباقية على الدهر ، واذا هو يغني النفس الانسانية : حيرتها او اطمئنانها ، او يرسم لها روائع الغايات التي تصبو اليهـــا ، او يدلها على جمال فتنتشي ، او حق فتخشع ، او ذل فتتمرد ، او سخف فتهزأ ، او حرية فتعتزم ان ان تصونها » . ان في هذا التحديد – على قصره وضيقه – لنفاذا عميقا الى التعريف بحقيقة الشعر ورسالة الشاعر ، تعريفا لا يجعل من الفن لهواً عابراً ولا من الشعر لحناً مسليا .

واذا كان المؤلف في مجـــال العلم يحرص على الدراسة العميقة والاختصاص الضيق والبحث الملح فانه – في عالم الشعر – يرحب بالقطرة الصافية « التي اخذتها الحياة بتلابيبها ومهرتها بتجاربهـــا وشدت اوتارها ، فاذا الشاعر فيها تتراءى له صور متعاقبة ، فيقنصها ويحنو عليها بالعقل المدرك والشعور المرهف ، واذا خير الشعر عنده لا اثر فيه لفكر معنت او لخيال مكدود او لشعور مصطنع او لحكمة لم تملها الحياة نفسها » . أليس في هـــذه الكلمات المقطعة ما يصح ان يكون دستورا للشعر الحي الخالد ؟

ولا ينسى المؤلف ان يهز عمق الانسان في نفس العالم ، لان الرجل قد يعب من ينابيـــع العلم ما شاء ان يعب ، فان لم يرض نفسه على ان عليه نحو الجماعة تبعة ينبغي ان تؤدى ، فهو دون الذرى التي اعدته الحياة لبلوغها ، فلا الحياة تحقق غرضها الاسمى فيه ولا هو يقضي من الحياة مأربه الامثل ، لان واجبه الفني مرتبط بواجبه الاجتماعي .

ومن رجال الطليعة – عنده – جميع الذين اكبوا على التراث حتى استردوا بعض ذخائره ، والذين اقاموا في صوامعهم ومجالسهم يرشدون ذوي العقول الغضة ، والذين استشرفوا الدنيا ووصلوا الماضي بالحاضر ، وجميع المعلمـــين الذين كان تعليمهم اشارة عطف او بسمة تشجيـــع او كلمة حب في تفسير حقيقة او مبدأ ، وجميـــع الذين وضحوا الاسلوب العلمي في البحث عن الحقيقـــة ووقفوا موقف المجاهـــد في توضيـــح اهم القضايا العلمية التي نشأت عن تطبيق ذلك الاسلوب – شأن المعـــلم يعقوب صروف – ، وجميـــع الذين اخذوا من معين الحياة الاسنى اضواء القوها على دروب مظلمة ، مدركين ان افضل انتفاع بالحياة هو ان نبذلها في سبيل شيء يبقى بعد ان تزول .

ولهـــذا كله نستطيـــع ان نبحث عن القاسم المشترك في هذه المقالات المتفرقة التي اتهمها البعض بعدم الارتباط بين اجزائها ، وعدم اتصالها كلها بأدب الطليعة ، فنجد فيهـــا بالرغم من كل شيء استشرافاً الى الطليعة . ومعنى الطليعة – كما يقدمها المؤلف – عقل متطور ، وقلب سليم ، وشعور كريم بالتبعة العلمية والفنية نحو الجماعة .

خليل الهنداوي